(الفصل الرابع)

"خطوة على الطريق"

أسرع نور الدين وأحلامه تسبق خطواته إلى مكتب المسئولين عن المشروع؛ ليتسلم أرضه ويبدأ أولى خطواته نحو تحقيق حلمه. وصل إلى المدير العام لفرع المشروع بالواحات، فدخل وألقى السلام قائلًا:

- **السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنا نور الدين ومعي خطاب بالموافقة على تسلم خمسة أفدنة هنا للاستصلاح.**

ابتسم المدير ثم رد السلام قائلًا:

- **وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مهلًا مهلًا، أراك متحمسًا للغاية، تفضل، لتستريح أولًا ثم نتابع الإجراءات؛ فما زال الوقت أمامك.**

فابتسم نور الدين ثم رد قائلًا:

- **حسنًا.**

بالفعل تمت الإجراءات وتسلم نور الدين الخمسة أفدنة خاصته، أرسل المدير أحد العمال مع نور الدين في سيارة تابعة للمشروع؛ لتقله إلى أرضه وسكنه الذي سوف يقيم فيه بعد الآن. غادر نور الدين وهو فى غاية السعادة؛ فلم يكن يصدق أن ما يعيشه الآن حقيقة وواقع لا خيال.

ركب السيارة وجلس ينظر من نافذتها على صحراء مصر الخلابة، وشاهد البيوت البدائية، بيوت أهل الواحات كم هي بسيطة جدًّا، لكنها رائعة في نفس الوقت، شاهد الحياة البدوية التي كان يقرأ عنها في الكتب، شاهدها على أرض الواقع، بساطة الحياة وبساطة المعيشة، ولكنه لن يقيم وسط أهل الواحات؛ فهذا ممنوع لأنه غريب وأعزب، لذلك فهو سوف يقيم في السكن التابع للمشروع في قلب الصحراء، بعيدًا عن المناطق المأهولة بالسكان.

وصلت السيارة إلى الموقع، ووقفت أمام مبنى بدائي بعض الشيء، عبارة عن طابق واحد أرضي، مقسمًا إلى غرف، بداخل كل غرفة حمام، يفصل كل غرفة عن الأخرى باب، الطابق مكون من ستة غرف، إذن فهذا الموقع مخصص لستة أفراد، ونور الدين هو واحد منهم، الطابق مقسم لثلاث غرف على اليمين، ثم قاعة كبيرة تشبه المطعم هي بالفعل قاعة تناول الطعام، بها ثلاجات وبتوجازات، دولايب للأطباق والآواني، ودولايب للمخزون الغذائي، وبالمنتصف منضدة طويلة تكفي ستة أفراد توجد حولها ستة مقاعد، وعلى اليسار ثلاث غرف أخرى، فكانت الغرف ١،٣،٥ على اليسار، والغرف ٢،٤،٦على اليمين.

نظر نور الدين إلى المكان ثم صمت لوهلة، وكأنه قد انتابه بعض الخوف والقلق؛ فالمكان تحيط به الصحراء من كل جانب، قاطعه العامل قائلًا:

- **لقد وصلنا يابشمهندس، وهذا هو مكان إقامتك، هيا تفضل اختار رقم الغرفة التي تريد لأعطيك مفتاحها.**

فصمت نور الدين قليلًا ثم قال:

- **ألا يوجد أحد غيرى هنا؟**
- **لا يا بشمنهدس، فانت أول من قدم إلى هنا ولكن لا تقلق؛ فالمكان هنا آمن للغاية؛ فالحدود يؤمنها الجيش، وفي النهار سيأتي العمال لبدأ العمل فالأرض على بعد عدة أمتار من هنا.**

فابتسم نور الدين وقد شعر ببعض الطمأنينة بعد حديث العامل معه ثم قال:

– حسنًا، سوف أختار الغرفة رقم٤.

– ليكن، وها هو مفتاحها، هيا لأساعدك في وضع أمتعتك داخل الغرفة.

فتح نور الدين باب غرفته ثم جال ببصره داخلها؛ فوجدها غرفة بسيطة، لكنها منظمة وبها كل ما يحتاجه في هذه الظروف، بها فراش ودولاب للملابس ومرآة ومكتب ومقعد ومكتبة صغيرة معلقة على الحائط بجوار النافذة، وبساط بسيط صناعة يدوية مفروشًا على الأرض، وجهاز راديو صغير، والأهم من كل هذا هو الهاتف، يوجد هاتف بقاعة الطعام، ابتسم قائلًا:

- **غرفة لابأس، ثم استقر ووضع حقائبه، تركه العامل وعاد إلى موقعه في مكتب مدير المشروع الذي يبعد هو الآخر بعض الكيلومترات، ولكن قبل أن يغادر العامل أخبر نور الدين بوجود دراجة بخارية بجوار السكن، في حالة إذا ما حدث أمر طارئ يستدعى الذهاب إلى مكتب المدير أو ماشابه.**

استقر نور الدين، لكنه شعر بالوحدة في بداية الأمر؛ فلقد كان يعتقد بأنه سوف يكون بصحبة بعض الشباب، لكنه طمأن نفسه قائلًا:

- **سيأتون لاحقًا، فمن الواضح أنني قد جئت مبكرًا، ولكن لابأس.**

فقام بتوضيب أشياءه، وضع كل شيء في مكانه، ثم فتح الراديو ليستمع إليه؛ ربما يؤنس وحدته حتى قارب الوقت على الظهر؛ فتوضأ ثم أغلق صوت الراديو والباب وخرج يتجول في أطراف الصحراء حول السكن.

أثناء تجوله لمح من بعيد بيتًا صغيرًا جدًّا، وشاهد حوله بعض الخراف، كان هو البيت الوحيد الموجود بهذه المنطقة، فقادته قدماه نحوه، كما ساقه فضوله إلى معرفة ما هي حكاية هذا البيت؟ ولمن هو؟ واستمر نور الدين في التقدم نحو البيت.

نأتي لناردين.

فلقد وصلت بدورها إلى مكتب مدير المشروع، لتتسلم أرضها، ولكنها تأخرت؛ لأنها قد ضلت الطريق فأرشدها بعض الأهالي إلى الطريق الصحيح، ولكن بعد مرور ساعات من التعب والبحث، كما أنها اتصلت بالشرطة، لاستخراج سيارتها من الصحراء، وأعطتهم مكانها الحالي وهو مكتب المدير.

عندما دخلت إلى مكتب المدير اندهش هو والعمال؛ ذلك لأنهم لم يعتادوا رؤية نساء بهذه المناطق سوى نساء أهل الواحات، وهن لهن هيئة وزى معروف، أما هذه الفتاة الممشوقة القوام، ترتدي بنطالًا جينز وبالطو طويلًا، وحذاءً ذا كعب عالٍ، وتغطي شعرها بوشاح صغير ذي لفة عصرية، وتضع على رأسها نظارة سوداء، وفي أذنيها تضع سماعة الهاتف. واضح من مظهرها أنها من أصحاب الطبقات الراقية، كل هذا أثار دهشة الحضور، ولكنها قاطعت دهشتهم هذه قائلةً:

- **مرحبًا سيدى المدير.**

فأجابها المدير مبتسمًا:

- **مرحبا سيدتي، كيف يمكنني مساعدتك؟**

فأجابته في ثقة قائلةً:

- **معك ناردين، وهذا خطاب تسلمي قطعة أرض هنا للاستصلاح، تفضل.**

وناولته الخطاب؛ فأخذه وهو ينظر إليه ويقلبه يمينًا ويسارًا في اندهاش وتعجب، ثم رد قائلًا:

- **كيف ذلك؟ ممنوع على الفتيات العمل هنا، مؤكد أن هناك خطأ بهذا الخطاب؛ فهناك فروع للمشروع بالمحافظات، كما أنه يوجد فرع في العامرية بالإسكندرية، لا بد وأنه قد حدث خطأ في التوزيع...**

قاطعته "ناردين" في حزم قائلة:

- **سيدى المدير، لا يوجد خطأ في الموضوع، فأنا التي طلبت أن يكون مشروعي هنا، وخالي قد ساعدنى مشكورًا.**

وأعطته كارت باسم خالها، فعرفه على الفور.

- **والآن من فضلك نتابع الإجراءات؛ لأني متعبة جدًّا.**

فنظر اليها المدير متعجبًا من حالها ثم قال:

- **حسنًا،كما تشائين، ولكن اعلمي بأن الأمر ليس هينًا، بل أنه في غاية الصعوبة والمشقة...**

فقاطعته في حدة، وقد شعرت بالضيق من حديثه هذا، الذي يقلل من قدراتها لأنها امرأة قائلة:

- **من فضلك، هيا لننهي هذه الإجراءات.**

فنظر اليها المدير، ولسان حاله يقول:

- **مؤكد أن هذه المرأة مجنونة.**

ثم نادى على عامل آخر، وأعطاها أوراق الخمسة أفدنة خاصتها، وطلب من العامل أن يوصلها إلى أرض المشروع والسكن؛ فشكرته، ثم أخبرته بأمر سيارتها، وأنها أعطت الشرطة عنوان المكتب، وطلبت منه أن يرسل السيارة إليها في مكان سكنها الجديد. غادرت مع العامل، وفي السيارة أخذت تنظر إلى جمال الطبيعة الساحرة، وشعرت بالخوف والقلق لوهلة، لكنها تدراكت هذا الشعور قائلةً:

- **ما الذي يمكن أن يكون أسوأ مما مضى؟ أعتقد أنه لا يوجد أسوأ مما عايشته، ومهما كان الذي ينتظرني فلقد أصبحت قادرة على تجاوزه.**

ثم ابتسمت وهى تتمتم:

- والآن ستبدأ أولى خطوات حلمي، ولكن بالتأكيد سوف يكون هناك في المشروع شباب، أوف، لا أريد أن أرى وجه أي رجل، ولكن ما شأني بهم، فكلٌ منا له عمله.

ثم انتبهت على صوت العامل وهو يحدثها قائلًا:

- حسنًا يا سيدتي، لقد وصلنا.

فنظرت إلى المكان الذي سوف تقيم فيه، وكان الوقت قد شارف على المغرب، وشكل المكان يوحي بالرهبة للوهلة الأولى، وكان انطباعها عن المكان هو نفس انطباع نور الدين. نظرت حولها وبصوت متوتر قالت:

- **ما هذا؟ ألا يوجد أحد غيرى هنا؟ هل سأكون هنا بمفردي؟ أعني ألا يوجد سكان بالقرب من هنا؟ فالمكان شبه مهجور تمامًا.**

أجابها العامل قائلًا:

- **يا سيدة، هذا المكان مخصص للرجال؛ فأعذريني، ما عملك أنتِ هنا؟**

غضبت ناردين من كلمات العامل الذي رآها امرأة ضعيفة، ماذا ستفعل في مكان الرجال؟ ثم أجابته فى عصبية قائلةً:

- **أولًا: أنا لست سيدة، أنا مهندسة، ثانيًا: اصمت، وضع هذه الأمتعة فى غرفتى ثم اذهب إلى طريقك هيا، هيا أسرع.**

فرد العامل فى توتر قائلًا:

- **حسنًا يا سيد... عفوًا يا بشمهندسة، ولكن أي غرفة تريدين؟ حتى أسلمك مفتاحها، وأضع أمتعتك بداخلها.**

فأجابته فى حدة قائلةً:

- **الغرفة رقم (٤).**
- **حسنًا.**

ثم أخذ يبحث في المفاتيح الموجودة بحوزته عن المفتاح رقم (٤) فلم ولن يجده؛ لأنه بحوذة نور الدين أساسًا، فلقد اختار هو هذه الغرفة من قبل، لكن العامل لا علم له بهذا الأمر؛ فهذا عامل آخر غير الذي سلم نور الدين المفتاح في الصباح، ثم قال:

- **عفوًا، لا أجد بين هذه المفاتيح المفتاح رقم (٤)، ربما فُقِدَ في مكان ما.**

فأجابته ناردين:

-لا يهم، إذن، أعطني الغرفة رقم (٦).

- حسنًا تفضلي.

تسلمت ناردين الغرفة رقم (٦) ووضعت أمتعتها ووضبت أشياءها، ثم جلست وحدها تتلفت حولها في هذا السكون والظلام، حدثت نفسها قائلة:

- **ماذا فعلت أنا ؟ حقًّا كنت أريد أن أعيش وحدي بمكان بعيد، ولكن يبدو أن الوحدة شيء مميت مهما كنا بحاجة إليها، ولكن صبرًا، سأعتاد.**

ثم استلقت في فراشها ونامت من شدة التعب والإرهاق؛ فلقد كانت رحلة شاقة بمعنى الكلمة، ولكن ما الذي سيحدث؟